

صورة بشارة بروفي في كتاب الأغاني

الكتبر محمد غياض

من فضل أبي الفرج الاصبهاني على الادب واهله ان ترك لنا كتابه العظيم (الاغاني)
مصدراً جليلاً للدراسات الادبية ومعيناً لا ينضب من اخبار الشعراء واشعارهم ونواديرهم
يصدر كل ذلك بأسانيد تطول او تقصر لارواة الذين سمع عنهم واسماء الكتب التي اعتمد
عليها حرصاً على الامانة العلمية في النقل وبراء للذمة .

ولم يكن أبو الفرج في كتابه هذا باحثاً علمياً مدققاً فهو لا يناقش الاخبار ولا يوازن
بين الروايات . فقد يكرر الخبر الواحد في اكثر من موضع بصيغ مختلفة وقد يذكر الخبر
وتقيضه في صفحة واحدة وقد ينسب الشعر لشاعر في موضع ، ولغيره في موضع آخر ،
فقد كانت غاية جهده أن يجمع تلك الاخبار الكثيرة ويدونها حفظاً لها من الضياع ويقدم
للباحثين مادة دسمة غنية لبحوثهم ويشارك فيها بتقديم وتهيأة مادتها الاولى .

وقد ترك أبو الفرج للاجيال التي تأتي بعده اليوم وغداً مسؤولية غريبة تلك الاخبار
ومناقشتها ودراسة الشعر والشعراء من خلالها على أسس رصينة من البحث العلمي وقواعده .
وقد رأينا أن ندرس بشارة من خلال هذه المادة الكثيرة الغنية من الاخبار التي قدمها
أبو الفرج عنه . ونحاول ان نحدد له صورة واضحة المعالم والمات .

نسر :

وقد ذكر أبو الفرج روايتين مختلفتين في نسب بشارة . ذكر له في الاولى اربعة

وعشرين جداً وذكر له في الثانية ستة اجداد ، وكل تلك الاسماء أعجمية ثم ي نسب الشاعر الى ملك من ملوك العجم اسمه (يستاسب ابن لهراسف) (١) .

ونحن نشك في صحة هذا النسب وهذه الاسماء كما نشك في كثير من تلك السلاسل النسبية الطويلة التي ذكرها أبو الفرج للشـراء ، ولا ندرى ما الذي دفع اولئك الرواة الذين نقل عنهم أبو الفرج الى حفظ تلك المجموعة الكبيرة من الاسماء الاعجمية لاجداد رجل كيشار ، وهو مولى من اسرة فقيرة كادحة ولم يكن من اصحاب الشأن والسلطان ليحفظ الناس نسبه ولتنقل معرفته من جيل الى جيل . اما نسبه الى ملوك الفرس فشيء ادعاه بشار في شعره وأوهم الناس به فصدقه بعضهم وخدع به كمثل قوله (من المتقارب) :
نمت في الكرام بني عامر فروعى وأصلي قرينش المعجم (٢)

وقوله (من الرجز) :

ورب ذي تاج كريم الجد

كآل كسرى وكآل برد (٣)

وقوله (من مجزؤ الرجز) :

جسدي الذي اسمو به كسرى وساسان أبي (٤)

وإذا علمت ان برداً هذا الذي يقربن بالاكاسرة كان طيباناً يضرب اللبن (٥) عرفت مقدار كذب بشار وادعائه . وضحكت عليه ورحمت له .

نشأه وورثه :

كان بشار أعجمياً في نسبه سكنت اسرته بلاد العرب منذ زمن جده « رجوخ » الذي كان من سبي المهلب بن ابي صفرة . ثم صار أبوه برد مولى لامرأة من بني عقيل أهدته اليها زوج المهلب .

وفي بني عقيل ولد بشار وولاه لهم معروف ذكره في شعره اكثر من مرة (٦) ،

(١) الاغانى ١٣٥/٦ (٢) الاغانى ١٣٨/٣ (٣) الاغانى ١٧١/٣
(٤) الديوان ٢٧٩/١ (٥) الاغانى ١٣٧/٣ (٦) الاغانى ١٣٨/٣ ، ١٣٩

وعزا لنشأته في عقيل فصاحته وتمسكته من العربية ، واعترف بهذا الولاء احد اولاده بعد ذلك فقال : (ولاؤنا لبني ربيعة بن عقيل) (١) .

وبشار لا يأنف من اصله الأعجمي ذاك وإنما يذكره ويفخر به (٢) .
وقد اتهم ابو الفرج بشاراً بالتلون في الولاء وذكر له ثلاثة نصوص شعرية (٣) في هذا ،
الاول يفخر فيه بولائه لقيس :

أمنت مضرة الفخشاء اني اري قيساً تضر ولا تضار
والثاني يفخر فيه بولائه لبني عقيل :

انني من بني عقيل بن كعب موضع السيف من طلي الاعناق
والثالث يتبرأ فيه من الولاء للعرب ويقول انه اصبح مولى الله سبحانه :

اصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب نخذ بفضلك فأنفج
مولاك اكرم من تميم كلها أهل الفعالم ومن قرش المشعر
فارجع الى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الاجل الاكبر

ونحن لا نرى في ذلك تلوناً في الولاء ولا تنافساً بين النصين الاول والثاني ، فبنو عقيل فرع من قيس ، والولاء لعقيل يستتبعه الولاء لقيس بالضرورة ، والتعذر بالاصل لا يتعارض والتعذر بالفرع .

اما النص الثالث فقد صمد فيه بشار الى المغالطة ، اذ ان الولاء لله سبحانه وتعالى - والناس جميعاً عباده ومواليه - لا يحلل من الولاء للعرب ولا ينفيه .

وأبو الفرج لا يقدم لنا شيئاً كثيراً عن نشأة بشار الاولى . غير قوله انه ولد اعمى ونشأ في البصرة لاسرة فارسية فقيرة . وان أباه كان طيئاناً وكان أخواه قصابين . وانه قال الشعر وهو ابن عشر سنين وكان أبوه يضربه لهجائه الناس .

ولم يشر أبو الفرج الى ان بشاراً درس دراسة تخصص لعلم من العلوم على استاذ بعينه

(١) الاغانى ١٣٦/٣

(٢) الاغانى ١٣٨/٣ ، ١٧٦٠

(٣) الاغانى ١٣٩/٣

من الاساتذة ، وانما كانت ثقافته خلاصة ما سمعه من حلقات مسجد البصرة ومخالطته
للمتكلمين وصحبته لهم^(١) . اما علمه بالعربية وثقافته بها ، فقد استفادها من ولاته
لفصحاء عقيل ومخالطته للاعراب وذهابه الى البادية^(٢) .

عصره وعصره ابي موي :

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً كان (من مخضرمي الدولتين العباسية والاموية .
قد شهر فيها ومدح وهجا وأخذ سني الجوائز مع الشعراء)^(٣) .
وليس بين ايدينا من شعره زمن بني أمية الا القليل . منه أبيات في النسب أنشدت
للوليد بن يزيد . وقصيدته البائية المشهورة في مدح ابن هبيرة . واخرى في مدح سليمان
ابن هشام وثانية في هجائه بمد ان استقل جائزته^(٤) .

علاقته بالزعماء والفقهاء والشعراء :

وقد سلك بشار سبيل التهمك والمجون فساءت علاقته بفقهاء البصرة كالحسن وواصل
ومالك بن دينار . كانوا يخرصون الناس والسلطة عليه وكان لا يتحرج من شتمهم
وهجأهم^(٥) .

اما علاقته بشعراء عصره فقد ذكر ابو الفرج ان بعضهم كانوا يأتون اليه ينشدونه
أشعارهم ويسألونه الرأي فيها كعلاء اللعلع ومروان وأبي التضير^(٦) .
وكان سلم تلميذه وقد غضب عليه مرة لأنه سرق معنى له فترضاه سلم (وقبل رأسه
ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ خريجك وأديبك)^(٧) وقوله للرشيذ (وهل أنا الا جزء
من محاسن بشار وهل انطق الا بفضل منطقته)^(٨) .

(١) الاغانى ١٤٦/٣ (٢) الاغانى ٢٠٦ ، ١٥٠/٣ (٣) الاغانى ١٣٥/٣

(٤) الاغانى ١٨٧/٣ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ (٥) الاغانى ١٤٥/٣ ، ١٦٩ ، ١٧٠

(٦) الاغانى ١٨١/٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ (٧) الاغانى ٢٠٠/٣

(٨) الاغانى ٢٤٢/١٩

وكان بشار باراً بأبي الشمقم يعطيه من ماله ويشفع له عند عقبة بن سلم^(١) ولبشار مهاجاة مع جرير بن لنذر السدوسي وحماد وأبي هشام الباهلي^(٢).

عرفته بالعباسيين :

أخذ بشار المدح وسيلة للتكسب كغيره من الشعراء منذ زمن بني أمية ، وعند ما جاء العباسيون حاول الاتصال بالمنصور فأعرض عنه ولم يلتفت إليه ، ولم يكن أبو جعفر كثير الاحتفال بالشعر حريصاً على تقريب الشعراء وتسكريمهم .

وعند ما جاء المهدي قرب بشاراً وأجزل له العطايا فأكثر من مدحها كما مدح يحيى بن خالد البرمكي^(٣) وأكثر من مدح عقبة بن سلم وابنه نافع من بعده وكانا يبالغان في تكريمه وبره^(٤).

وبشار يمدح تكسباً ، كما قلت ، وليس شاعراً من شعراء البلاط للملازمين له ، وإنما كان يقد عليه في فترات متباعدة . ولذلك لم يجادل في حق العباسيين بالخلافة ولم يخاصم من اجلهم ، كما فعل مروان وعلي بن الجهم ، وغيرهم ، كما لم يفعل ذلك زمن بني أمية . لم يكن بشار من شعراء السياسة ولا نستطيع أن نقين له مذهباً سياسياً معيناً . اما الميمية المشهورة التي أنشدها ابراهيم بن عبد الله الحسيني في تأييد الثورة على المنصور وهجائه وتحريض الناس عليه^(٥) فانما كانت قصيدة ندم الشاعر عليها بعد ذلك وأراد ان يوهم الناس انه قالها في ذم ابي مسلم الخراساني ، بعد ان وضع اسمه مكان اسم المنصور من القصيدة ، وهي لا تعكس لنا موقفاً سياسياً بقدر ما تعكس إنهازية بشار وسوء تقديره للامور ، فقد تصور ان الثورة ناجحة لاحالة . وان سلطان المنصور يوشك على الزوال بعد ان اندلعت ثورة محمد النفس الزكية في المدينة وثورة اخيه ابراهيم في البصرة في وقت واحد تقريباً .

(١) الاغانى ١٧٨/٣ (٢) الاغانى ١٣٧/٣ ، ١٤١ ، ١٥٢

(٣) الاغانى ٢٠٢/٣ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ (٤) الاغانى ١٧٦/٣ ، ١٨٩ ، ٢٣٠

(٥) الاغانى ١٥١/٣ - ١٥٧

وبعد ان استطاع انصار ابراهيم الوصول الى فسطاط المنصور ونهب مصلاه ، تصور
 بشار اذن ان الامر صائر دون ريب الى الحسينيين فأراد ان يتخذ له يداً عند ابراهيم ليذكره
 اذا ولي الامر ويجعله شاعره الاثير المقرب . هذا فضلا عن اعتقادنا بكرامية بشار للمنصور
 لبخله وعدم تقريبه له او لغيره من الشعراء ولقتله ابن هبيرة بعد ان أمنه ، وقد كان ابن
 هبيرة هذا صاحب بشار وولي نعمته وكان التعصب للقيسية يجمع بينها ويحبب احدهما الى
 الآخر (١) .

ولا يمكن ان نعد بشاراً متشيعاً بسبب هذه القصيدة او ميالاً للعلويين كما ذهب الى
 ذلك الدكتور طه حسين والدكتور الحاجري (٢) وآية ذلك ان بشاراً غير في القصيدة بعد
 اخفاق الثورة واتصل بالعباسيين ومدحهم ، كما اننا لا نجد له شعراً آخر في العلويين او في
 تأييدهم زمن المهدي (٣) .

ونحن نعلم ان ابراهيم كان زيدياً وكانت ثورته ثورة الزيدية والمعتزلة (٤) ولم يكن
 بشار من اولئك ، ولو كان كذلك لأشار اليه ابو الفرج وهو زيدي كما نعلم ولقرآبه يعقوب
 ابن داود وزير المهدي ولما سعى في قتله ومحاربتة ، وقد كان يعقوب احد وجوه الزيدية
 ورجالها (٥) .

عرفته بعماء اللغة :

اما علاقته بعماء اللغة فلم تكن حسنة دائماً . اذ كانوا يعيبون عليه بعض شعره ،
 وكان كغيره من شعراء عصره يسخر بهم ، ويهجوهم ويرى انه افصح منهم واعلم بالعربية
 وانهم ينبغي ان يسألوه ويتعلموا منه .

(١) الاغانى ٢/٣١٩

(٢) حديث الاربعاء ٢/٤٠٩ و بشار بن برد للحاجري ٩ ، ٤٥ ، ٢٠

(٣) مقاتل الطالبين لابي الفرج ٨٩١ - ٣٠٨ (حلة العلويين زمن لمهدي)

(٤) المصدر السابق ٢٢٩ - ٢٧٩ (ثورة ابراهيم بن عبد الله)

(٥) الطبري ٦/٢٨٢

وقد ذكر ابو الفرج ان الاخفش وسيبويه حابا عليه بعض شعره . فهجأها فكانا بعد ذلك يستشهدان بشعره (استكفافاً لشعره) (١) .

ولسنا نعتقد ذلك ولا نؤمن به فقد كان حسبها عدم ذكر شعره وتسلط عيوبه ليكف عنها أذاه وسوء لسانه . اما الاستشهاد بشعره تعلقاً له فشيء لا يمكن تصديقه . اذ كان هؤلاء العلماء اشد امانة وأكثر خشية لله أن يفعلوا ذلك أو يرضوه لأنفسهم ، ولو صدقنا مثل هذا - وهو أمر بالغ الخطورة - لدفعنا بالضرورة الى التشكيك في قيمة جميع شواهد الاخفش وسيبويه . وعدم الاطمئنان اليها ، وهذا ما لا يقوله عاقل ولا يرضى به احد .

وتخطئة بعض العلماء لشاعر ما في هذه اللفظة أو تلك ، لا تقوم دليلاً على فساد لغته أو الشك في فصاحته . اذ ربما كان فيها على حجة من كلام العرب ولغات بعض قبائلها ، وأين العالم الذي ألم بكل كلام العرب واساليبها ولغاتها ، ولم يكن لبشار من العجم الا الاصل والنسب فقد ولد ونشأ وعاش في بلاد العرب . وكان يختلط بالاعراب ويعاشر البدو ويسمع عنهم (٢) ، وقد سئل مرة عن خلو شعره مما يستنكر أو يشك فيه من الالفاظ . فقال : (ولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نساءهم فساؤهم أفصح منهم ، وأيقمت فأبدت الى أن ادركت ، فمن أين يأتي الخطأ) (٣)

وكان خلف الاحمر وخلف بن ابي عمرو بن العلاء يزورانه ويسجلان عنه ويسألانه عن الغريب (٤)

وفاته :

وعن وفاة بشار ذكر ابو الفرج عدة روايات تقول الاولى ان بشاراً قصد المهدي مادحاً بقصيدته المعروفة (من الطويل) :

(٢) الاغانى ٣ / ٢٠٦

(٤) الاغانى ٣ / ١٩٠

(١) الاغانى ٣ / ٢٠٩ - ٢١٠

(٣) الاغانى ٣ / ١٥٠

تجالات عن فهر وعن جارتى فهر وودعت نعى بالسلام وبالبشر
فلم يزل منه شيئاً فهجاء في حلقة يونس النحوي بقوله :

خليفة يزى بعساته يلمب بالدبوق والصولجان
أبدلتنا الله به غيرد ووس موسى في حر الخيزران

فسمى به أهل الحلقة الى يعقوب بن داود (وكان بشار قد هجاء بقوله (من البسيط) :

بني امية هبوا طسال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
صاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود^(١)

فبلغها يعقوب للمهدي (فسكاد ينشق غيظاً وعمد الى الانحدار الى البصرة للنظر في
أمرها ، وما وكده غير بشار . فأنحدر فلما بلغ الى البطيحة سمع أذاناً في وقت ضحى النهار
فقال انظروا ما هذا الاذان ؟ فاذا بشار يؤذن سكران . ثم دعا ببن نهيك فأمره بضربه
بالسوط فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها . ثم ألقى في سفينة حتى
مات ثم رمي به في البطيحة . فجاء بعض أهله فحمله الى البصرة فدفن بها)^(٢) .

ولنا على هذه الرواية اعتراضات عدة أولها ان حلقة يونس النحوي في البصرة وليست
في بغداد ثانيها ان بيتيه (بني امية ...) لا نجد فيها هجاء ليعقوب بن داود كما يزعم ابو
الفرج وغيره وإنما فيها تمخريض عليه وهجاء للخليفة ، ثالثها سؤالنا عن السبب الذي يدعو
الخليفة للذهاب الى البصرة طلباً لبشار .

وكان يمكنه ان يكلف شرطته أو والي البصرة بالقبض عليه والمجيء به الى بغداد . ثم
ما الذي يدعو له لو أراد ذلك بنفسه أن يعود على الناس ويتظاهر بأنه إنما يسافر للنظر في امر
البصرة وهو لا يريد ان يظفر بأمر خطير أو تائر صاحب جند واتباع . وإنما يريد رجلا
لا حول له ولا طول امام قوة الخلافة وسلطانها .

(٢) الاغانى ٣ / ٣٤٤

(١) الاغانى ٣ / ٤٤٣

البطيحة : ارض واسعة بين واسط والبصرة . والحراقة سفينة فيها مراى نيران يرمى بها العدو .

وإذا افترضنا صحة هذه الرواية جدلاً وان حلقة يونس بن حبيب كانت في بغداد فنحن نفترض أن هجاء بشار للخليفة وصل إلى أذنه سريعاً بفضل الوشاة وأن بشاراً وهو رجل أعمى كبير السن لم يكن قادراً على سرعة الحركة والانتقال ، وكان باستطاعة الشرطة أن تقبض عليه وهو في بغداد أو على مشارفها .

ثم نحن بعد ذلك لنعجب لهذا الراوية الذي توهم في نفسه الخدق والمهارة فرتب مثل هذه المصادفة العجيبة التي جمعت بين المطارد وطريدته على أرض البطيحة . فإذا بشار يترنج سكران في تلك الصحراء المترامية ولا يكاد يرفع صوته بالأذان والوقت ضحى حتى تكون حراقة الخليفة بمحاذاته فيسمعه ويأمر بقتله .

أليس عجيبياً أن يصل الأعمى على بعيره والخليفة بحراقتة السريعة على دجلة في وقت واحد لمكان واحد .

وإذا افترضنا أن بشاراً حمل معه على بعيره من الخمر ما يجعله سكران حتى يصل البطيحة - اذ ليس في الصحراء أما كمن للخمور وبيعها - أفليس غريباً أن يؤذن السكران بدلاً من أن يتغنى على عادة السكران أو يسمع أحدكم بسكران يؤذن قبيل بشار ، أو ليس هذا كله تكافؤاً من الرواية ليثبت بطريقة ساذجة تهمة الزندقة لبشار وليبرر قتل الخليفة له ؟ أما الرواية الثانية فتقول أن يعقوب بن داود هو الذي قتله وقد خاف أن يقدم على المهدي فيمدحه ويعفو عنه بعد ما بلغه من هجائه (١) .

والرواية الثالثة أقرب الروايات إلى المنطق فهي تذكر كسابقتها أن بشاراً مدح المهدي ووزيره ببغداد فلم يعطياه شيئاً ، ثم أنه اطلال للمقام بباب داود وذكره بجائزته فأعرض عنه (فلم يعطف ذلك يعقوب عليه وحرمه ، فانصرف إلى البصرة مغضباً) (٢) .

ثم إن المهدي قدم البصرة زائراً ووصل الشعراء على يدي وزيره ولم يعط بشاراً شيئاً وحرمه مرة ثانية . فذهب بشار إلى حلقة يونس وانشد هجاءه في الخليفة . وعند ما سمع

(٢) الأثافي ٣/٢٤٦

(١) الأثافي ٣/٢٤٥

بذلك أمر ابن نهيك صاحب شرطته بأخذ بشار (وأزف خروجهم فخرجوا وأخرجه ابن نهيك معه في زورق . فلما كان بالبطيحة ذكره المهدي فأرسل الى ابن نهيك يأمره ان يضرب بشاراً ضرب التلف . فضرب سبعمين سوطاً مات منها والقي في البطيحة)^(١) .
وهذه الرواية تفسر لنا أين كانت حلقة يونس ولماذا قتل بشار في البطيحة بين البصرة وبعثداد .

وقد ذكر أبو الفرج رويته يقول فيها انه عند ما ضرب بشار بأمر الخليفة (ما بقي بالبصرة شريف إلا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا ومات بالبطيحة)^(٢) ولو كان بشار مرض في بيته قبل موته لصدقنا هذه الرواية ولكن كيف نفسر ان يحمل اشراف البصرة فرشهم وهداياهم تلك من البصرة الى البطيحة لرجل مقتول بالصحراء بأمر الخليفة .
ثم كيف (تباشر عامتهم وهنا بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا)^(٣) عند ما مات بشار كما يقول أبو الفرج وما كان للرجل من الطول والقوة ما يرهب به مدينة كاملة ويضطر اهلها الى مثل هذا النفاق والرياء . وهل من المعقول ان نفوس اهل البصرة فسدت كل هذا الفساد المنكر يحملون هداياهم للرجل اليوم ويتبادلون التهاني بموته غداً .

ثم كيف تصدق قول أبي الفرج في ان احداً لم يخرج وراء جنازة بشار غير امة له سوداء^(٤) اين كان اهلها وتلاميذته واصدقاؤه والمعجبون به والنسوة المنتظرات اللواتي كن يزرنه ويحفظن شعره كما يقول أبو الفرج^(٥) واين مواليه من بني عقيل الذين سكبوا يستنجدون به اذا هجم احد من الشعراء ويقولون له : (يا أبا معاذ نحن اهلك وانت ابنا وربيت في حجورنا فأعنا)^(٦) .

فلئن كان بشار مبعثاً الى اهل الورع والتقى من البصريين ، لقد كان محبباً الى شبابهم وأهل المجون والعبث منهم . ألم يقل أبو الفرج قبل هذا (وعهدي بالبصرة وليس فيها

(١) الاغانى ٢٤٦/٣ (٢) الاغانى ٢٤٢/٣

(٣) الاغانى ٢٤٨/٣ (٤) الاغانى ٢٠١/٣

غزل ولا غزلة الا يروي من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب به ، ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف معرفة لسانه (١) .

واذا تركنا جانباً اصحاب الشرف هؤلاء الذين يخافون بشاراً قاتل جمهوره هذا الكثير من الغزليين والغزلات والنائحات والمغنيات . أوليس ذلك من تناقض ابي الفرج رحمه الله فيما يورد من اخباره ؟

وفيما يتعلق بوفاة يذكر ابو الفرج خبراً غريباً ايضاً مفاده ان المهدي امر بتفتيش منزل بشار بعد ان قتله فوجد فيه ورقة كتب عليها ان بشاراً اراد هجاء آل سليمان بن علي العباسيين ، الا انه امسك عنهم اجلاً لرسول الله (ص) لقرابتهم منه . الا انه قال فيهم :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالسابلين حفصا بالغفاريت
لا يبصران ولا يرجي لقاءهما كما سمعت بهاروت وماروت (٢)

وان المهدي بعد ان قرأ ذلك (بكى وندم على قتله وقال لاجزي الله يعقوب بن داود خيراً فانه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته ثم ندمت حين لا يعني الندم) (٣) .

وعندنا ان هذه الرواية مختلفة لاصحة لها . اذ ان بها وجوهاً من الغرابة اولها دافع المهدي الى تفتيش منزل الرجل بعد ان قتله وفرغ من امره . أفلا كان ذلك قبل قتله اذ كان يريد البينة وقيام الحججة ؟ ثم منذ متى كان خلفاء الامويين والعباسيين يندمون على قتل الناس ، ويكون لهم ، وقد كانوا يقتلون على الغائنة والغضب

ولماذا ذكر الخليفة هجاء بشار لوزيره بعد مقتله لاقبله ؟ ثم نحن نعلم ان بشاراً كان اعشى لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن من الذين يحرصون على كتابة قصائدهم وظروف قوله لها واسبابه ، فما الذي دفعه اذن ان يحرص على تكليف من يكتب له تفسيراً لعدم هجائه لآل سليمان فقط ؟ ثم ألم يكن المنصور والمهدي من ابناء عم الرسول العباسيين كآل سليمان فلماذا لم يتحرج بشار من هجائهم كما تحرج من هجاء آل سليمان ؟ ثم كيف يكون الهجاء اذا لم نعتبر بيتيه السابقين من اقدم الهجاء وأمره لآل سليمان وقد رماهم بالبخل والشح .

(٢) الاغانى ٣/٢٤٩

(٣) الاغانى ٣/٢٤٩

(١) الاغانى ٣/١٤٩

وهناك سؤال تثيره هذه الرواية اذا افترضنا صحتها جدلاً ، وهو ما الذي فعله المهدي بوزيره وشهود الزور بعد ان تبين له كذبهم وانهم كانوا سبباً في قتله لشيخ اعمى في السبعين من عمره ضرباً بالسياط ؟ أيكثفي بالبكاء والندم أم يقيم عليهم حد الاسلام في شهادة الزور وهو خليفة المسلمين ، وحامي الشريعة واحكامها ؟

شعره :

وقد ذكر لنا ابو الفرج من شعر بشار ما يكفي لأن يحدد لنا اهم اغراضه واساليبه . كما ذكر لنا راويتين من روايته احدهما يحيى بن الجون العبدى ^(١) وثانيهما سلم الخاسر الذي قال للرشيد (وحياتك ياسيدي اني لأروي له تسعة آلاف بيت ، ما يعرف أحد غيري منها شيئاً) ^(٢)

وقول سلم هذا وقول بشار ان له اثنتي عشرة الف قصيدة ^(٣) يدلنا على كثرة شعر الرجل وان كان لا يقنعنا تماماً بهذا العدد الكبير لقصائده ، اذ لا يمكن لشاعر مكثرتبلغ قصائده الآلاف ان يحدد رقماً معيناً لعدد قصائده أو يحيط بها حصراً .

ونحن نعلم ان بشاراً قال الشعر وهو ابن عشر سنين ^(٤) فاذا طرحنا هذه السنوات العشر من عمره يكون بهذا قد قال الشعر لمدة خمسين سنة بمعدل مائتين واربعين قصيدة سنوياً اذا اخذنا برواية ابي الفرج الاولى التي يقول فيها انه مات (وقد ناهز ستين سنة) ^(٥) أو يكون قد قال الشعر لمدة ستين سنة بمعدل مائتي قصيدة سنوياً اذا اخذنا برواية ابي الفرج الثانية في انه مات (وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة) ^(٦) ومع ان الفترة الزمنية الطويلة التي عاشها الشاعر وقوله المبكر للشعر وقرىحته للمواثبة الفياضة مما يساعد على كثرة هذا الشعر ويفسرهما . الا انه لا يمكن مع ذلك ان يكون له كل هذا العدد الهائل من القصائد ، ولا يمكن ان ينظم مائتي قصيدة أو تزيد كل سنة ، اللهم الا ان يكون آلة

(٢) الاغانى ١٩ / ٢٤٢

(٤) الاغانى ٣ / ١٤٣

(٦) الاغانى ٣ / ٢٤٩

(١) الاغانى ٣ / ٤٣٧

(٣) الاغانى ٣ / ١٤٤

(٥) الاغانى ٣ / ٢٤٧

من هذه الآلات التي تشير في زماننا هذا بالذرة والالكترون .

وقد ضاع معظم شعر بشار ولم يصلنا الا القليل منه . وهذا هو ما تعرض له شعر غيره من المكثرين كالسيد الحميري وابي العتاهية فنحن نعلم ان اغراض الشعر العربي محدودة معدودة واكثر الشاعر من النظم بها لهذا الاسراف سبب مهم من اسباب ضياع شعره اذ ان الناس ينتقون لكل غرض احسن ما قيل فيه ويعرضون عن الباقي . اذ ليس من المعقول ان يحفظ أحد من الناس اربعة آلاف قصيدة في الغزل لبشار وحده أو ثلاثة آلاف قصيدة في المدح أو في اي غرض آخر .

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً كان يحشو شعره اذا اضطره الوزن أو اعوزته القافية باسماء لا وجود لها على الحقيقة كأبي مجلز وابن قنانه والبردان اسم لموضع^(١) ، وهذه الملاحظة القيمة من ابي الفرج تدفعنا الى الاعتقاد بان كثيراً من اسماء الاعلام والامم التي وردت في الشعر العربي لا وجود لها على الحقيقة . ولعل غير بشار من الشعراء كانوا يعتمدون ايضاً الى مثل ذلك اذا اضطرهم الوزن أو اعوزتهم القافية .

وقد ذكر ابو الفرج خبيراً نادراً قال فيه ان بشاراً كان في مجلس بجزاة بن ثور السدوسي (وعليه بزة الشعراء)^(٢) فدلنا على ان الشعراء كانوا يتخذون بين الناس لباساً خاصاً بهم يعرفون به ويبدل عليهم .

كما ذكر ابو الفرج ما يدل على ان شعر بشار تعرض لبعض النحل والتريد عليه في حياته فقد سمع ذات يوم رجلاً ينشده قصيدته المشهورة (من الرمل) .

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونمى عني الكرى طيف ألم
(حتى بلغ قوله :

ختم الحب لها في عنقي موضع الخاتم من اهل الدم

فقال بشار : « عمن أخذت هذا ؟ » . قال « عن راوتك فلان » فقال : « قبحه الله ،

(٢) ١٦٦ / ٣

(١) الاغانى ٣ / ١٦٣ - ١٦٤

والله ما قلت هذا البيت قطع . أما ترى الى أثره فيه . ما اقبحه واشد تميزه عني « فقال له
بعض من حضر : نعم هو الحقه بالابيات) (١)

ومثل هذا النحل متوقع الحدوث بالنسبة لشاعر مكثراً كبشار أو غيره .

وقد اختلط شعره واخباره باشعار غيره من الشعراء واخبارهم . اذ نجد ابا الفرج
ينسب احدى القصائد لبشار مرة ولأبي العباس الاعمى مرة اخرى (٢) .

وكذلك نسب احدى النوادر والقصص الماخذ له مرة ولأبي العباس الاعمى مرة
اخرى (٣) ونسب له ادعاء الحج والتظاهر بالسفر له في موضع (٤) ونسب ذلك لمطيع بن
أبياس في موضع آخر (٥)

وكان بشار كما يذكر ابو الفرج حريصاً على اختيار الفاظه لتناسب عقل من يخاطبه
ومزاحه . فقد اكثر من الغريب في احدى قصائده التي مدح فيها سلم بن قتيبة . وفسر
ذلك بقوله (ان سلماً يعجبه الغريب) (٦) وعندما أراد أن يرضي جاريته زبابة لانها تأتيه
بالبيض من دجاج لها قال :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ورد على من عاب شعره هذا بقوله : (فهذا عندها احسن من قفا نيك من
ذكرى حبيب ومزل عندك) (٧)

ومن خلال كتاب الاغانى تنضح لنا شدة اعجاب بشار بحريز وتعلقه به فقد ادركه
في سنواته الاخيرة وهو في أوج عظمته ومجده الشعري فصور له غرور الشباب والاعتداد
بالنفس انه يستطيع جره الى المساجاة ليشتهر به الا ان جريراً أعرض عنه واستصغره (٨)
وكانت هذه بداية تعلقه بحريز ومحاولته لفت نظره اليه . ثم معارضته وتقليده والنسج على

- | | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| (١) الاغانى ٦ / ٢٥١ | (٢) الاغانى ٣ / ٢٢٤ ، ١٤ / ٢٣٠ |
| (٣) الاغانى ٣ / ٢٢٤ ، ١٤ / ٢٣٠ | (٤) الاغانى ٣ / ١٨٦ |
| (٥) الاغانى ١٣ / ٣٠٠ | (٦) الاغانى ٣ / ١٩٠ |
| (٧) الاغانى ٣ / ١٦٣ | (٨) الاغانى ٣ / ١٤٣ |

منواله بعد ذلك . وقد ذكر له ابو الفرج قصيدة نونية ضمنها ابياتاً من نونية جرير المشهورة ومنها :

وذات دل كأن البدر صورتها	باتت تغني عميد القلب سكرانا
(ان العيون التي في طرفها حور	قتلنا ثم لم يحيين قتلانا)
فقلت احسنت يا سؤلي ويا أملي	فاسمعي جزاك الله احسانا
(يا حبذا جبل الريان من جبل	وحبذا ساكن الريان من كانا)
قالت فهلا فدتك النفس احسن من	هذا لمن كان صب القلب حيرانا
يا قومي اذني لبعض الحي عاشقة	والاذن تعشق قبل العين احياناً ^(١)

وقد مات له ولد فزع عليه ويمثل بأبيات جرير في مثل موقفه ذلك^(٢) ولعل تعلقه وانجابه بجرير فقط دون بقية الشعراء كان له اثر في شعره فهو وان كان يختلف عنه خلقاً الا انه يشابهه في فصاحة اللغة ورقة الالفاظ ، وسعة الخيال ووقرة العاطفة .

مكانة الشعرية وآراء النقاد فيه :

حدد أبو الفرج مكانة بشار الشعرية بقوله : (ومجمله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يعني عن وصفه واطالة ذكر مجله)^(٣) .

وهذا كما ترى حكم عام لا تفصيل فيه ولا وضوح فيم تقدم بشار طبقات المحدثين وما وجه رياسته عليهم ؟

وقال الجاحظ : (كان بشار شاعراً خطيباً صاحب منثور ومنزود وسجع ورسائل وهو من المطبوعين اصحاب الابداع والاختراع المفتنين في الشعر القائلين في اكثر اجناسه وضرويه)^(٤) .

(٢) الاغانى ٢٤٠/٣

(١) الاغانى ١٦٥/٣

(٤) الاغانى ١٤٥/٣

(٣) الاغانى ١٣٥/٣

وقد كان يودنا لو وصلنا شيء من خطب بشار ونثره لتتكون لنا صورة واضحة عن هذا الجانب الثاني من أدبه ، وان كنا نعتقد انه لم يبلغ فيه من الجودة ما بلغ في شعره ، والا لكان قد وصلنا منه بدافع إعجاب الناس به وحفظهم ولو لجزء يسير منه .

ويلفت نظرنا في اقوال النقاد كثرة مقارنتهم له بمروان خاصة دون سائر الشعراء . وتبدو هذه المقارنة في معرض ردعهم على اسئلة الناس : أمروان أشعر أم بشار ؟ وقد حكم له أبو عبيدة بالتفوق على مروان معتمداً على ادعاء بشار في كثرة الجيد من شعره وان له اثني عشرة ألف قصيدة جيدة (١) .

وفضله الاصمعي ايضاً وقال في تفسير ذلك : (ان مروان سلك طريقاً أكثر من يسلكه فلم يلاحق من تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرده به وهو أكثر تصرفاً وفتون شاعر وأغزر وأوسع بديعاً . ومروان لم يتجاوز مذاهب الاوائل) (٢) .

ولعل في هذا التفسير ما يلقي بعض الضوء على سبب تقديم النقاد له ، اذ هو في نظرهم مجدد سلك طريقاً جديداً في الشعر لم يسبقه اليه احد . اما مروان فكان مقلداً للاقدمين شديد المحافظة في شعره . وقد غضب الاصمعي لانه وجد اهل بغداد يختمون الشعراء بمروان لا ببشار . وقال : (وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقومه . وهذا سلم الخامس من طبقة مروان يزاحمه بين ايدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز وسلم معترف بانه تبع لبشار) (٣) ولعل سبب تقديم البغداديين لمروان على بشار انهم كانوا يعرفونه اذ هو مقيم بينهم أكثر من معرفتهم ببشار الذي كان يزور بغداد لمأماً ويطيل الإقامة في البصرة بعيداً عنهم .

ويجب ان لا ننسى ان الاصمعي كان بصرياً كبشار وربما كان ذلك من اسباب تعصبه له ، وكان يقول : (ان بشاراً خاتمة الشعراء والله لو لا ان ايامه تأخرت لفضلته على كثير

(١) الاغانى ٣/١٤٤ (٢) الاغانى ٣/١٤٢ (٣) الاغانى ٣/١٤٨

منهم) (١).

ونحن لا نقبل هذا العذر من الاصمعي اذ لا قيمة لتقدم عصر الشاعر أو تأخره في تقويم منزلته وقيمة شعره الفنية .

وكان الاصمعي يشبهه بشاراً بالاعشى والثابغة ويشبه مروان بزهير والحطيئة ويقول :
(هو متكافئ) (٢) كما فضل أبو عبيدة ميمية بشار في مدح ابراهيم بن عبد الله علي ميميتي
جرير والفرزدق دون ان يشرح سبب هذا التفضيل او مبرره (٣) .

وكان أبو زيد الانصاري يقول : (مروان أجد وبشار أهزل) . وقال الاصمعي :
(بشار يصلح للجد والهزل . ومروان لا يصلح الا لاحدهما) (٤) .

اما أبو عمرو بن العلاء فقد حكم لبشار انه أهزل الناس بيتاً واهجهم وأمدحهم (٥) .
والى جانب هذه الغالبية من الآراء التي جاءت في صالح بشار . يقف ناقد واحد فقط
هو اسحق الموصلي الى جانب مروان فيفضله على بشار ويقول : (هو كثير التخليط في
شعره . واشعاره مختلفة ، لا يشبه بعضها بعضاً أليس هو القائل :

أعنا عظم سليمان حبتي فصب السكر لاعظم الجمل
وإذا ادبت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

لو قال كل شيء جيد ثم اضيف اليه هذا لزينه .

وكان يقدم عليه مروان ويقول : هذا هو اشد استواء شعر منه . وكلامه ومذهبه
اشبه بكلام العرب ومذاهبها وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيراً (٦) .

وموقف اسحق هذا واضح كل الوضوح فهو محافظ أشد المحافظة لا يجذ الخروج
على مذاهب العرب ولا يميل الى التجديد ولذلك كان حكمه قاسياً عليه وعلى دعائه كبشار
وأبي نواس ونحن لا نوافق على نظره هذا في ان ضعف ابیات شاعر ما كافية لرفض الجيد

(١) الاغانى ١١٣/٣ (٢) الاغانى ١٤٩/٣ (٣) الاغانى ١٠٨/٣
(٤) الاغانى ١٤٩/٣ (٥) الاغانى ١٠٠/٣ - ١٠١ (٦) الاغانى ١٠٦/٣

من شعره والحكم عليه بالضعف والتفاهة . اذ لا يسكاد يحلو شعر شاعر من مثل ذلك .
يكون قد ظله في صباه أول عهده بالشعر . او قاله دعابة ومزاحاً وتفكهاً (١) .

وكما ينقسم النقاد اليوم في مسألة المحافظة والتجديد كذلك انقسموا زمن العباسيين
بين محبذ لهذا التجديد مشجع له ، وبين كاره له ضيق به وبأصحابه .

ولم يحدد لنا النقاد المؤيدون لبشار والزارون به ، ما وجه التجديد عنده وما هي
مقوماته وأين يقع من شعره ؟

أمر عماد في شعره :

ولد بشار أعمى كما نعلم وقد تركت هذه العاهة أثراً بعيداً في حياته وشعره . فهو دائم
الإشارة لها كناية أو تصريحاً ، وكان يعتقد ان ذكاه وقوة حافظته وشاعريته القياضة
تعوضه عن بصره وتغنيه عنه . فقد قال :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
وغاض ضياء العين للعلم رافداً
وقال :

أبى ولم ترها تهذي فقلت لهم
وقال ايضاً :

يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم
ومن ذلك قوله ايضاً :

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى

فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب

(٢) الاغانى ١٤٢/٣

(٤) الاغانى ٢٣٨/٣

(١) الاغانى ١٦٣/٣ ، ١٨٧ ، ١٨٠

(٢) الاغانى ٢٣٨/٣

فما تبصر العينان في موضع الهوى
وقوله (من المنسرح) :

بلغت عنها شكلا فاعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر (٢)
ولعلك قد رأيت كثرة تكرار بشار لذكر القلب والثؤاد والاذنين في هذه الايات
القلبية و اشارته الى انها تغنيه عن البصر وتقوم مقامه .

وكان بشار كغيره من العميان سيء الظن بالناس لا يطمئن الى همسهم ويفزع من
نحوهم ويتوهم انهم يتشاورون به سوءاً . وفي ذلك يقول :

يروعه السرار بكل ارض مخافة ان يكون به السرار (٣)
واسراف بشار بالهجاء اثر من آثار عماء . فقد جمع الى العمى قباحة الشكل وسوء
المنظر ولا شك انه تعرض الى ما يتعرض له غيره من العميان الذين ينشأون وسط رجاج الناس
وأوباشهم الذين لا يحترمون عاهسة المتبلى بها . وانما يتخذونها وسيلة للتندر والمداعبة
والمزاح الثقيل ولم تكن لديه وسيلة يدفع بها عن نفسه غير لسانه . وكلما ازداد لسانه بذاءة
وقسوة ازداد خوف الناس منه وتجنبهم للعبث به والسخرية منه .

فالهجاء عنده اذن سلاح دفاع لا سلاح هجوم ، وهو اثر من آثار بيئته القاسية
وعاهته الدائمة ولا مجال للمقارنة بينه وبين ابي الملاء الذي نشأ في بيئة مهذبة وامرة علمية
كبيرة يحترمها الناس ويقدرونها .

وفي معظم الاخبار التي ذكرها ابو الفرج لم يكن بشار معتدياً أو بادياً بالعدوان وانما
كان يدفع عن نفسه ويرد على من آذاه . الا ترى انه سمع ارجوزة عقبة بن ربيعة فقال له :
أحسنت . فأجاب عقبة بقوله : (والله ما تحسن هذا يا ابا معاذ) . فاستثاره حتى غسدا
بالارجوزة العزيزة الراجعة على عقبة وصمد لتجديده . ومطلع الارجوزة :

يا طلل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدي

(١) الاغانى ٢٣٨/٣ . (٢) الاغانى ٢٢٩/٣ . (٣) الاغانى ٢٢٣/٣ .

وقد قال الجاحظ معلقاً على هذا : (فانظر الى سوء ادب عقبه بن رؤبة . وقد اجمل
بشار محضه وعشرته . فقابله بهذه للقبيلة القبيحة) (١) .

وبعض هجائه كان معاينة لنفر من اصدقائه الذين تعودوا للمزاح معه ، وكانوا يبالتون
في استنارته ليهجوهم ويشتمهم . فقد ذكر ابو الفرج ان بعض صديقه هؤلاء تعرضوا له
بنوع من المزاح الثقيل وشتموه فقال لهم : (قوموا عني يا بني الزنا . فاني مشغول القلب
لست انشط لمشاغبتكم) (٢) .

واذن فبعض هجاء بشار كان مزاحاً ودعابة ولم يكن يقصد به الى الجدل او الى شيء من
الشر ، صغر أم كبر .

وبعض هجائه كان ليقوم قصدهم مادحاً ببديع شعره فخرهوه الجائزة او اعطوه نزرأ ،
وذلك كفيل باغاظته وشعوره بانه مدح اناساً لثماء لم يكونوا اهل المدح ولا الحسن ظنه
وأنا أجزى للشاعر ان يهجو مثل هؤلاء . ولا انكر عليه ذلك . اذ كفى لثمنا بالانسان
وسوء طبع الا يقابل مدح الشاعر له وحسن ظنه به بما يستحق من الرعاية والاكرام وان
اناساً يريدون الثناء وخلود الذكر بالبخل والتقتير لجديرون بالهجاء والثلب .

وكانت بشار لعاهته تلك لا يعتمد الا على شعره في كسب رزقه اذ لا يحسن عملاً
ولا يتقن صنعة ، وهو رجل صاحب اسرة وعيال . فمدح تكسباً وكانت اقدار الممدوحين
لديه بقدر عطايتهم . الا ترى انه سئل عن احسانه في مديحه لعقبه بن سلم وانه قال فيه
ما لم يقله في أحد غيره . فقال : (ان عطاياه اياي كانت فوق عطاء كل احد) (٣) .

وكما اثر عماء في مديحه وهجائه فقد أثر كذلك في غزله فهو في معظمه حسي محض
يعتمد على ما تسمعه الأذن وما تلمسه اليد .

ومعظم غزله بالنساء وهو مبرء مما أوغل فيه بعض الشعراء من وصف العفان والتغزل

(٢) الاغاني ٣/٢٢٣ .

(١) الاغاني ٣/١٧٧ .

(٣) الاغاني ٣/١٩٤ .

بهم . فقد عابته ابو عبيدة يوماً بقوله : (يا ابا معاذ أيعجبك الغلام الجادل ؟ فقال غير محتشم ولا مكثرت : لا ، ولكن تعجبيني امه)^(١) .

وقد كان وصفه حسيماً كغزله وان كان قد استعار معظم اوصافه وصوره من الشعر القديم الذي تمثله فاحسن تمثله . والبيت الذي اعجب الناس به وعجبوا له ، وهو :

كأن مثار القمع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب^(٢)

مستعار كله من صور الشعر القديم وتشبيهاته ولم يكن إختراعاً لبشار أو ابتكاراً منه ، فثأ أكثر ما وصفت العرب سيوفها بالكواكب وغبار المعارك بالليل البهيم . وقد وصف بشار السفينة في أكثر من موضع^(٣) وهذا أثر من آثار بيئته البصرية . ولعله كان يستخدم السفينة في اسفاره بين البصرة وبغداد .

اما الحكمة في شعره فهي خلاصة تجاربه في الحياة وطول معاشرته للناس ولا تربطه بذهب فلسفي معين . ويستطيع الرجل اللبيب ادراكها دون حاجة الى افتراض تأثره بالعوامل الاجنبية وقراءة كتب ابن المقفع كما يذهب الى ذلك استاذنا الدكتور شوقي ضيف^(٤) .

ملحق :

كان بشار سليط اللسان لا يتورع عن الاقذاع والشتم كما كان متمسكاً على اللذة حراًصاً عليها ، ولكنه لم يكن شراً كله . ومن يقرأ اخبار ابي الفرج بامعان يجد الرجل جانباً خيراً في حياته وخلفه . فهو وان كان ساخطاً على الناس سىء الظن بهم الا ان ذلك لم يدفعه كما دفع ابا العلاء الى العزلة وانتشاؤهم ، وانما كان مع الناس يشارك في حياتهم وامورهم على ميل فيه للدعابة والسخرية منهم وبهم . لم يهرب من الحياة وانما واجهها وعاشها حلوة ومررة صارعها وصارع نفسه وذاق خيرها وشرها . كان ذا زوج وعيال واخوة يرعاهم ويعيلهم

(٢) الاغانى ١٤٢/٣

(١) الاغانى ١٨٤/٣

(٤) تاريخ الادب العربي ٢١٠/٣

(٣) الاغانى ٢٤٢/٣

ويسمى في حوائجهم ، ولم يكن مجرداً من العاطفة الخيرة . فقد كان محباً لآخواته وولده
 وصديقه باراً بهم . الا ترى الى اخويه انصابين كانا يغيران على ثيابه يلبسانها ثم يتركان
 فيها من نتن الرائحة واقذار مهنة الجزارة ما يتركان فيحتمل ذلك كله ويرى فيه
 (صلة للرحم) (١) ، ثم الا ترى كيف سعى في حاجة ابي الشمقمق وشفع له عند عقبة بن
 سلم (٢) وكان رثاؤه لمن مات من ولده وصديقه (٣) مؤثراً صادقاً يدل على عاطفة مخلصه
 طيبة ونفس صافية شفافة يهزها للصاب ويعتصرها الحزن .

ثم اقرأ معي هذه الايات الجميلة الجيدة لتعلم كرم بشار وبعض جوانب خلقه الحسن :

لقد كنت لا أرضى بادنى معيشة ولا يشتكي بخلا علي رفيق
 خليبي ان المال ليس بنافع اذا لم يدل منه أخ وصديق (٤)

عقيدته :

وقد كثر الحديث حول عقيدة بشار فهو منهم بالزندقة والشموبية ، وها عندي بمعنى
 واحد . فاذا كانت الشموبية هي ان يطلب المسلم من غير العرب مساواته بالعرب فهذا شيء
 لا بأس به ولا ضرر منه وحق يكفله الاسلام لمن دخله . اما التفخر على العرب وذكر خشونة
 حياتهم البادية وشظف عيشهم فأمر لا تنسكه العرب ولا تدفعه عنها .

كان العرب يكثر من مفاخرة الاقوام الاخرى ، ومن حق هذه الاقوام ان تفخر
 بما عندها ايضا وترد على العرب . وقد كان بشار في معظم ذلك يرد على من فاخره وغاب
 عليه اصله ومن شك في ذلك فليرجع الى روايات الاغانى (٥) . وحق الدفاع عن النفس حق
 مشروع . ثم ان هذه المفاخرات لا ضرر منها بين مواطني الدولة الواحدة طالما لا تعرض
 بسوء لاصول الدين وسيادة الدولة وامنها . وهو أمر متوقع في دولة تضم اشتاتاً من

(١) الاغانى ٣ / ٢٠٨

(٢) الاغانى ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٤ ، ١٦٦

(٣) الاغانى ٣ / ٢١٠

(٤) الاغانى ٣ / ١٧٨

(٥) الاغانى ٣ / ١٦٦ - ١٧٠

الناس والواناً من القوميات المختلفة ، ولم يبح الاسلام للعرب ان يفاخروا الناس فلا يرد عليهم احد بمثل ذلك .

والشعوبية التي افهمها هي الزندقة عينها . وهي العمل الجاد ضد الدولة العربية الاسلامية والطمع بالاسلام والزراية به ، وبهذا المفهوم لا أجد دليلاً بيناً يدين بشاراً او يثبت عليه ذلك .

اما زندقته فقد جاءت من قبل الدولة التي قتلته . وقد عرفنا ان قتله كان لهجاء المهدي ووزيره وواليه على البصرة . والدولة طرف في الخصومة . ولا تقبل شهادتها في رجل قتلته فقد يكون ذلك تبريراً منها لمقتل الرجل امام الناس .

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً سمع غناء بيت من شعره فقال : (هذا والله أحسن من سورة الحشر)^(١) وفي هذا قلة أدب من الشاعر ودليل على عدم تخرجه في امر الدين . ولكنه قال ذلك وقد استخفه العرب ، - وهي حالة عاطفية حادة - قد يقول الانسان بها مالا يعنيه وربما كان سكران . ولو اننا أردنا ان نحكم بالكفر على كل انسان لهفوة كهذه لاسرفنا في ذلك على الدين المتين واهله .

وقد آثمه غير واحد بالمجوسية وتفضيل عبادة النار على الطين مستدلين ببيته الذي يقول فيه :

النار مشرقة والارض مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار^(٢)

ولا ينبغي ان تتسكف تفسير البيت ونحوه غير معناه ليوافق ما في نفوسنا من ميل الى تكفير الرجل ، اذ ليس كفرة ان يقول رجل من المسلمين ان النار اجمل منظراً واكثر بها من الارض وكلاهما من آيات الله وبديع صنعه ، ليس ذلك تقريراً لحقيقة واقعة لا ينسكرها احد ولا يجادل بها ، وينبغي ألا ننسى ان قائل هذه الايات رجل اعشى يعيش الظلمة المطبقة عمره كله فهو حري ان يكرها ويبرم بها . وحري ان يحب النور ويرى فيه

(٢) الاغانى ٣ / ١٤٠

(١) الاغانى ٣ / ٢١١

لنفسه أنساً وأمناً وراحة .

ثم أرأيت إن حكمت أن الشمس أكثر بهاء من القمر أيصح أن يتهمك احد بعبادة الشمس وإذا فضلت البقرة على الماعز أيصح أن تتهم بعبادة البقرة ، والخروج عن الاسلام الى الهندوكية ؟ أوليس في ذلك تطرف ومغالاة واسراف .

ونحن نعلم ان النار كانت معبودة لامم كثيرة فما ضرر أن يقول بشار ذلك وما مبرر اتهامه بالمجوسية ؟ أفلو كان شاعر من العرب قال ذلك أكننا نتهمه بما تتهم به بشاراً ؟ ولو قال احد منا ان الاصنام كانت معبودة العرب وآلهتها ، أيصح أن يتهم بالوثنية والرجوع عن الاسلام ؟

وقد عاب عليه استاذنا الدكتور شوقي ضيف رثاءه لاصدقائه ورأى انهم كانوا زنادقة معتمداً في ذلك على امالي الشريف المرتضى ^(١) ولكننا لم نجد المرتضى ^(٢) يشير الى زندقة اولئك المرتبين كما لم يشير ابو الفرج الى زندقة احد منهم عند ذكره لقصيدة اخرى في رثائهم ^(٣) . وقد تبادل بشار وحماد الهجاء واتهم كل منهما صاحبه بالزندقة ^(٤) وشاعر الهجاء يقول كاذباً وصادقاً ولا يتخذ الهجاء حجة على خاق المهجو ودينه ، كما لا تقبل شهادة المتخاصمين في بعضهم البعض .

اما الخبر الذي يقول ان بشاراً كان يدين بالرجعة ويكفر جميع الامة بعد وفاة الرسول (ص) ^(٥) فقد كان عدد كبير من المسلمين على اختلاف نحلهم يدينون بالرجعية والمهدوية وان كانوا يختلفون في شخصية المهدي المنتظر ، وهذا امر لا يعارض اصلاً من اصول الدين ولا يخرج من يقول بذلك منه ^(٦) .

اما تكفير الامة فسوء ظن من الشاعر بالناس ، ولا يبرر تكفيره . الا نجد الآن من

(١) تاريخ الادب العربي ٣ / ٢٠٦

(٢) امالي المرتضى ٢ / ١٢٢

(٣) الاغانى ٣ / ٢٣٤

(٤) الاغانى ١٤ / ٢١٠ - ١٣ ، ٢٠٩ ، ٢٦٢

(٥) الاغانى ٣ / ١٤٥

(٦) اصل الشيعة واصولها ٧٩

كقولنا من يؤمن بان الناس كفروا جميعاً وان الاسلام لم يعد له وجود وان الساعة آتية
لشدة كفر الناس ومروقهم .

ونحن نجد في شعر بشار ما يشير الى شيء من الاعتزاز بالدين والتفخر بالانتساب اليه
والدفاع عنه . فقد قال يهجو عبدالكريم بن ابي العوجاء بعد ان صلب لزندقته ووضعه
بالحديث الشريف :

قل لعبدالكريم يا ابن ابي العوجاء
لأتصلي ولا تصوم قال ص
لأتبالي اذا اصبحت من الخ
ر عتيقاً الا تكون عتيقاً
ليت شعري غداة حليت في الجيـد حنيفاً حليت أم زنديقاً
أنت ممن يدور في لعنة الله صديق لمن . . . الصديقاً (١)

أرى ان هذا هجاء بقوله زنديق في زنديق ، افلو كان بشار زنديقاً أفليس من المعقول
ان يرثي عبدالكريم ويتوجع له . فاذا خاف الدولة وسلطانها أفليس من المعقول ان
يسكت ولا يتعرض لارجل يمثل هذا الهجاء ؟

ثم الا ترى كيف يتهم بشار المنصور بالخروج على احكام الدين وشرعته ويدعو الناس
للثورة عليه ومناصرة ابراهيم :

تجدت للاسلام تعقو سبيله
فما زلت حتى استنصر الدين اهله
وتعري مطاه ثيوت الضراغم
عليك فعاذوا بالسيف الصوارم
ثم يقول في ابراهيم :

من القاطمين الدعاء الى الهدى
أيقول هذا رجل لا يؤمن بالله ولا يغار على الاسلام وحرماته . واسمه يقول ايضاً:
جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم (٢)
وما خاب بين الله والناس عامل
له في التقى اوفي المحسـامد سوق

(٢) الاغانى ٣ - ١٠٧

(١) الاغانى ٣ - ١٤٧

ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن اخلاق الرجال تضيق^(١)
أيقول هذا رجل لا يؤمن بالله ولا يتوكل عليه ولا يرى اثابته على صالح الاعمال .
وقوله وقد اراد مغازلة جارية صديق له . فقدم على ذلك (من للتقارب) :
أتوب اليك من السيئات واستغفر الله من فعلتي
تأولت ما لم أرد نيله على جهل أمري وفي سكرتي
ووالله والله ما جئتسه لعمد ولا كان في همتي
والافت اذن ضائعاً وعذبي الله في ميتتي^(٢)

أيقول هذا زنديق لا يؤمن بالتوبة وحساب القبر واليوم الآخر .
وخلاصة القول عندنا في عقيدة بشار انه لم يكن زنديقاً كافراً خارجاً عن الدين . كما انه
لم يكن في الوقت نفسه شديد التدين والحرص على احكام الدين وتعاليمه . وانما كان رجلاً من
عامة المسلمين لا يكفر بالله ورسوله ولكنه لا يتحرج ككثيرين غيره . من اتباع هواه
وارتكاب المعاصي .

ولعله ليس من حقنا ان ن نصب من انفسنا قضاة للناس ندخل منهم في الاسلام من نشاء
ونخرج من نشاء ولنا مطلعين على غيوب الناس وما تسكن ضمائرهم وقلوبهم . وهم يوم
القيامة يردون الى خالقهم فيفصل بينهم بالحق . يدخل في رحمة من يشاء ويعذب من يشاء
وليس لنا الا ان نحسن الظن بالناس ولا نسرف في الحكم عليهم . وحسن الظن مقدم
على سيئه .

والله موفق للرشاد .

محسن عباس

المصادر

- ١ - الاغانى - أبو الفرج الاصبهاني - دار الکتب والماسي (مصر) والثقافة (لبنان)
- ٢ - بشار بن برد - الدكتور طه الحاجر ي مصر ١٩٦٣ .
- ٣ - اصل الشيعة واصولها - محمد حسين كاشف الغطاء، بيروت ١٩٦٠ .
- ٤ - تاريخ الادب العربي (المعاصر العباسي) الدكتور شوقي ضيف - مصر (دار المعارف) .
- ٥ - تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - مصر ١٩٣٩ .
- ٦ - ديوان بشار - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٧ - حديث الاربعاء - الدكتور طه حسين ، مصر ١٩٦٠ .
- ٨ - مقاتل الطالبين - أبو الفرج الاصبهاني ، بيروت ١٩٦١ .